القومية وعواملها (١)

تمهيد :

قبل الخوض في مواضيع القومية العربية لا بد لنا من البحث في مدلولات كلمات كثيراً ما تتردد على الألسنة ، ونراها في الصحف وفي الكتب الاجتماعية والفلسفية والسياسية : كالوطن والوطنية ، والقوم والقومية والأقوامية ، والشعب والأمة والأممية ، والدولة والدولية ، وغيرها من الكلمات التي يكون لبعضها معان لغوية ومعان اصطلاحية مختلفة ، ويكون للفلاسفة فيها آراء متعددة . ولنبدأ حديثنا بكلمتي الوطن والوطنية .

الوطن والوطنيّة :

فالوطن في لغتنا الضادية المضربة المنزل أي البيت الذي تقيم فيه . ولم تذكر معجماتنا الأصلية لهذا اللفظ إلا هذا المعنى . وذكرت له أيضاً معاني مجازية : ففي « اللسان » الوطن المنزل تقيم به ، وهو موطن الإنسان ومحله ، والجمع أوطان . ومن المجاز : أوطان الغنم والبقر مرابضها وأماكنها التي تأوي اليها .

وفي « القاموس » : الوطن محركة وتسكن منزل الإقامة ومربط البقر والغنم .

وشرح الزبيدي صاحب « التاج » جملة القاموس بقوله : الوطن منزل الإقامة من الإنسان ومحله ، وهو أيضاً مربط البقر والغنم الذي تأوي اليه ، وهو مجاز .

---

(١) دُعي الأمير مصطفى الشهابي نائب رئيس المجمع الى إلقاء محاضرات في « القومية العربية » على طلبة معهد الدراسات العربية العالية في القاهرة ، فتألف مما ألقاه ومما سيلقيه كتاب سيطبعه المعهد في حينه . وقد رأت لجنة المجلة نشر هذه المحاضرة الأولى لما اشتملت عليه خاصةً من تعريفات لغوية واصطلاحية لألفاظٍ كثيراً ما اختلف الكتاب في تحديد معانيها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولم يزد أصحاب المعجمات الحديثة كأقرب الموارد والبستان والمنجد على ما ذكر . ومن المعلوم أن لكلمة الوطن في كتب اللغة معاني أخرى لا صلة لها بما نحن بصدد بحثه . والوطن والموطن مترادفان .

وللكلمة المذكورة معان اصطلاحية قديمة في الشرع الاسلامي ، فقد جاء في كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي أن الوطن أنواع عند أهل الشرع : الأول الوطن الأصلي ويسمى بالأهلي وبوطن الفطرة والقرار أيضاً ؛ وهو أن يكون الوطن مولد المرء ومأهله ومنشأه . والثاني وطن الإقامة ويسمى أيضاً بوطن السفر والوطن المستعار والحادث ، وهو ما خرج المرء اليه بنية الإقامة فيه نصف شهر أو أكثر من غير أن يتخذه مسكناً . والثالث وطن السكنى وهو ما ينوي الإقامة فيه أقل من نصف شهر .

أما في الاصطلاح الحديث ، وهو ما يهمنا في بحثنا هذا ، فالوطن هو البلد الذي ولد المرء فيه ، أو البلد الذي يُنسب المرء اليه من حيث جنسيته أي تابعيته . والبلد في اللغة ليس القرية أو المدينة التي ولد أو نشأ الإنسان فيها . بل هو القطر كله ، أو بتعبير المعجمات جنس المكان ، كمصر والشام والعراق ؛ وعلى هذا يقال مثلاً مصر بلدي . أما مولد الإنسان ومسكنه (والأول يسمى اليوم مسقط الرأس) فهو البلدة بالتاء . والبلدة في كتب اللغة الجزء المخصص من البلد ، كالمدينة والقرية .

ومن الواضح أن الوطن في الاصطلاح الحديث هو البلد لا البلدة ولا المنزل ، وذلك خلافاً لما جاء في المعجمات ، وخلافاً لما كان متعارفاً عند القدماء . فابن الرومي مثلاً لم يشر الى أبعد من داره في أبياته الثلاثة الجميلة المشهورة وهي :

ولي وطن آليت ألاّ أبيعه ... وألاّ أرى غيري له الدهر مالكا
وحبب أوطانَ الرجال اليهم ... مآربُ قضاها الشباب هنالكا
اذا ذكروا أوطانهم ذكرتهمو ... عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وللوطن معان مجازية حديثة : منها أن تكثر زراعة نبات مّا في بلد من البلدان فيقال إنه وطنه . كقولنا مثلاً : جزيرة العرب وطن النخل . ومنها أن يحب الإنسان بلاداً غير بلده ، إما لأنه ارتاش وتأثل المال فيها ، أو لأن إقليمها موات له ، أو لغير ذلك من الأسباب ، فيقول إنها وطنه ، كقول أجنبي يحب مصر : مصر وطني .

ومنها أن يطلق المرء اسم الوطن على كل بلد أو بلدة يعيش فيها في خير . وهذا الاصطلاح قديم ، وله باللاتينية تعبير معروف وهو Ubi bene, ibi patria ، أي حيثما تكن في خير يكن وطنك .

ومنها أن يسمي الإنسان بلدته وطناً صغيراً ، وبلده وطناً ، وبلاد أمته وطناً كبيراً أو أكبر ، كقول العراقي الذي ولد ونشأ في بغداد : بغداد وطني الصغير ، والعراق وطني ، وبلاد الأمة العربية وطني الكبير أو الأكبر .

والوطنية حب الوطن والعمل في خيره . وهي لغوياً مصدر صناعي مشتق حديثاً بزيادة ياء النسب والتاء على كلمة الوطن ، مثل قول القدماء عروبية وجاهلية وكيفية وكمية وأشباهها ، وقول المحدثين حمضية وقلوية وعطرية وسمية وهلم جرا . ومن قرارات مجمع اللغة العربية اعتبار هذا الاشتقاق قياسياً .

وللوطني أي المنسوب الى الوطن ، في اصطلاحنا الحديث ، معنيان : الأول صفة العمل الذي فيه خدمة للوطن ، كقول أحدهم لقد قمت اليوم بعمل وطني . والثاني صفة المرء الذي يحب وطنه ويعمل في خيره كقولنا هذا الوطني هو من رجال أمتنا المجاهدين .

ومما اصطلحنا عليه حديثاً مصدر المواطنة للمشاركة في وطن واحد ، واسم الفاعل مواطن للمشارك فيه . ولم ترد المواطنة بهذا المعنى في معجماتنا القديمة . ففيها : واطنه على الأمر أضمر فعله معه ، فان أراد معنى وافقه قال واطأه وهو مجاز . ومن المفيد إقرار المعنى الحديث للمواطنة . وهو عمل يأتيه مجمع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

اللغة العربية الذي من جملة أعماله تضمين بعض الكلمات معاني جديدة لشيوعها أو للحاجة اليها .

القوم والقومية :

القوم في اللغة الجماعة من الرجال والنساء جميعاً . وقوم كل رجل شيعته وعشيرته . والقوم بذكر ويؤنث مثل رهط ونفر وكل ما كان للآدميين من أسماء الجموع التي لا واحد لها .

ونحن في الاصطلاح الحديث نستعمل لفظة القوم بمعنى الأمة أي بمعنى الاصطلاح الحديث للأمة . وقد اشتققنا من القوم مصدراً صناعياً هو القومية . وكان من الواجب أن نشتق من « الأمة » مصدراً كهذا المصدر وهو « الأمية » ؛ ولكن لهذه الكلمة في اللغة معنى آخر مشهوراً وهو صفة الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب ؛ فخوف الالتباس يحملنا على العدول عن كلمة الأمية الى كلمة القومية . وعلى هذا أخذنا نطلق الأمة والقوم على ما يسميه الأعاجم Nation ، ونطلق القومية (لا الأمية) على ما يسمونه Nationalité ، وكذلك على ما يسمونه Nationalisme ، وفي اعتبارنا أن الأمة والقوم شيء واحد في الاصطلاح العربي الحديث ؛ فعندما تعذر علينا النسب الى الأمة نسبنا الى ما اصطلحنا على أنه مرادف لها وهو القوم .

وتدل القومية في اصطلاح أيامنا هذه على جملة أمور : الأول صفة مخصوصة بجماعة من البشر وهم الذين يتألف منهم قوم أي أمة . يقال مثلاً : من نزعات القومية أن تنتظم في دولة . والثاني جملة الصفات التي تتميز بها أمة من الأمم ، أو هو الأمة في حياتها الخاصة والشخصية ، كقولنا القومية العربية والقومية الألمانية وهكذا . والثالث حب الأمة التي ينتمي الانسان اليها ، وتفضيل خصائصها على خصائص غيرها . والقومية بهذا المعنى مذهب من المذاهب السياسية مخالف لمذهب يسمى الأقوامية أو الأممية ، وهو مذهب المنكرين للقومية ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الداعين الى حب البشرية دون تمييز أمة من أمة في ميولهم ونزعاتهم . وسترون ما في ذلك من ضرر على أمثالنا من الشعوب .

والقومي مَن دانَ بمذهب القومية . ونقيضه الأقوامي أو قل اللاقومي .

وقد تكون القومية نزعة بسيطة في النفس ، وقد تكون برنامجاً لحزب سياسي ، أو عقيدة في نفوس أبناء الأمة الواعية . ولأعمال القوميين شكلان بارزان : الأول أن تكون الأمة غير مستقلة فيعمل القوميون على إبلاغها استقلالها التام . والثاني أن تكون الأمة مستقلة تماماً فيعملوا على مدافعة الأخطار عنها بشتى الوسائل السياسية والاجتماعية والاقتصادية . ومن النزعات القومية في التأريخ الحديث نزعة شعوب الأمة العربية الى الظفر باستقلالها التام ، وكفاح الهند حتى ظفرت باستقلالها ، وكفاح ألمانيا للإفلات من قيود معاهدة فرساي الخ .

ومن الواضح أن الأقوامي أو اللاقومي لا يهتم بمثل هذه الأمور الوطنية ما دام من مذهبه عدم الاعتراف بالأقوام ولا بأوطانها .

الأمة والشعب :

الأمة في معجماتنا القرن من الناس . وهي الجيل والجنس من كل حي . وأمة كل نبي من أُرسل اليهم . وكل قوم نُسبوا الى نبي فأضيفوا اليه فهم أمته . وللأمة معانٍ أخرى .

أما في اصطلاح هذه الأيام فالتعريف المشهور للأمة هو أنها جماعة من الناس يقطنون بقعة من الأرض معلومة ، ولهم لغة واحدة في الأعم ، وأخلاق متشابهة ، وماض مشترك في الأمجاد والآلام ، وحاضر مشترك في التفكير والمصالح .

والشعب في اللغة القبيلة العظيمة ، أو ما كان أكبر من القبيلة ؛ ولذلك جاء في أساس البلاغة : « العرب شعوب » . وفي لسان العرب : « وكل جيل شعب » . والشعب في هذا المعنى يرادف الأمة لغويا .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وهذا الترادف وارد أيضاً في الاصطلاح الحديث عندنا وعند بعض الأعاجم على السواء . فلكلمة الشعب عندنا ولكلمة Peuple عند الفرنسيين مثلاً أربعة معان اصطلاحية : الأول الأمة في معناها الحديث ، يقال الشعب الألماني والشعب الإيطالي أي الأمة الألمانية والأمة الإيطالية . والثاني جماع سكان بلد كمصر ، وسكان مدينة كالقاهرة فيقال شعب مصر وشعب القاهرة . والثالث طبقة مخصوصة من الأمة ، وهي طبقة الكافة ، أي القسم الأكبر من سكان البلد ، خلافاً لطبقات أخرى كطبقات النبلاء والأثرياء والباشاوات وغيرهم ممن يستأثرون بالمرافق العامة ولا سيما في الحكومات الفاسدة . والرابع جزء من الأمة له كيان سياسي مثل قولنا شعب تونس وشعب العراق وشعب السودان أجزاء من الأمة العربية . وهذا الاصطلاح الأخير هو في نظرنا أهم الاصطلاحات الأربعة . فنحن في هذه المحاضرات لم نطلق كلمة الشعب إلا على معناها الرابع . ولم نستعملها قط مرادفة لكلمة الأمة . فالأمة العربية عندنا هي جماع الشعوب العربية . وسكان سورية وتونس واليمن مثلاً ليسوا أمماً بل شعوباً من أمة واحدة هي الأمة العربية ، ولهم قومية واحدة هي القومية العربية .

الدولة :

ليس للدولة في معجماتنا الأصلية المعنى المعروف في زماننا هذا . فالدولة فيها انقلاب الزمان من حال البؤس والضر الى حال الغبطة والسرور . والدولة أيضاً العُقبة في المال ، أي النوبة والبدل . وأطلق المولدون القدماء الدولة على الملك ووزرائه .

أما في الاصطلاح الحديث فالدولة جماعة مستقلون يعيشون دائماً في أرض لهم معلومة ، ويخضعون لسلطة نُظمت لكي تضمن للفرد وللجماعة حريتهم وممارسة حقوقهم . ويتضح من هذا التعريف أن قوام الدولة الأول وجود فرقة من الناس كبيرة يستطيع أفرادها أن يعيشوا بما يكسبون ، والثاني أن يكون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هؤلاء الناس متمتعين بعيشة حرة مستقلة ، والثالث أن يكونوا خاضعين بملء إرادتهم لسلطة عليا منظمة مهمتها الإشراف على شؤونهم . والرابع أن يكونوا قاطنين أرضاً لهم معروفة وكافية لضمان استقلالهم وضمان ثباتهم مجتمعين في تلك الأرض . فكل جماعة من البشر استوى لها جماع هذه الأمور هي دولة . والدولة غير الأمة على ما هو واضح في تتمة هذا البحث .

علاقة الأمة بالدولة :

من مبادئ القوميين جعل بلادهم وطناً واحداً تضم أبناءه دولة قومية واحدة . ولكن ذلك لا يتيسر لهم دائماً ، فالقوة والتسلط الاستعماري ومطامع بعض الدول كثيراً ما تحول دون رغبات القوميين . وها كم بعض الأشكال التي تبدو لنا في علاقة الأمة بالدولة .

الشكل الأول : هو الشكل الطبيعي الذي تتوق القوميات الى تحقيقه ، وهو كما قلنا أن يكون للأمة دولة واحدة مستقلة تشمل سلطتها جميع الأراضي التي يتألف منها وطن تلك الأمة . وفي هذا الشكل تختلط الأمة بالدولة . ومن الأمثلة عليه فنلندة والسويد وغيرهما .

الشكل الثاني : هو أن يكون للأمة الواحدة أكثر من دولة واحدة مستقلة ، فتعمل القومية على ضم شتات الأمة في دولة موحدة أو في دولة اتحادية . مثال ذلك في الماضي ما كانت عليه ألمانية وايطالية قبل أن تتحد أجزاء كل منها ، ومثال ذلك في الحاضر سعي القوميين العرب الى توحيد بعض الدول العربية المستقلة ، وهو ما سنبحث فيه في محاضراتنا التالية . ومن الواضح أن في هذا الشكل يكون لأبناء كل دولة من دول الأمة الواحدة وطن خاص ووطنية خاصة ، ولكنه يكون لجملتهم أي لأبناء الأمة جميعاً وطن عام يشمل تلك الأوطان المنفصل بعضها عن بعض . فالقومي العربي السوري مثلاً يعد سورية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وطنه الخاص ، ويعد مصر جزءاً من وطنه الكبير ، ويعمل على توحيدهما بطرائق شتى [1] .

الشكل الثالث : قد تكون الأمة عرضة للتسلط السياسي أو للتسلط الاستعماري فتسعى جاهدةً للتفلت من براثن المتسلطين . فالأمة البولونية مثلاً كانت قبل الحرب العالمية الأولى تابعةً لثلاث دول كبيرة ، على حين أن أبناءها ما انفكوا محتفظين بلغتهم وبقوميتهم الى أن تمكنوا من ضم شملهم في دولة مستقلة واحدة . وشبيه بذلك كان وضع اليونان وبلغارية ورومانية عندما كانت تابعة للدولة العثمانية . وشبيه بذلك أيضاً ما كانت عليه بعض الأقطار العربية بالنسبة الى تلك الدولة . ففي جميع هذه الحالات تعدُّ الدولة المسلطة أفراد الأمة المغلوبة على أمرها من رعاياها ، أي تعدهم جزءاً من أبناء دولتها ، ولا تعترف لهم بكيان قومي مستقل عن كيانها . أما هم فنزعتهم القومية تحملهم على مقاومة هذا التسلط ، وعلى بذل الجهد للظفر بالاستقلال ، وللانتظام في دولة قومية واحدة .

ويبرز من حديثنا هذا الفرق بين الأمة والدولة ، وصلة الواحدة بالثانية . فرب دولة تكون مؤلفة من أمم شتى : كما كانت الدولة العثمانية والدولة النمسوية المجرية في الماضي ، وكما هي الدولة السويسرية في الحاضر . ورب أمة تسلط عليها المتسلطون فحالوا دون تأليفها لدولة قومية مستقلة ، كالدول التي ألمعت اليها .

ولم تكن نظرة القدماء الى صلة الدولة بالأمة شبيهة بنظرة المحدثين اليها . فقبل القرن التاسع عشر من الميلاد ولا سيما في القرون الوسطى كان الوطن والدولة شيئاً واحداً في البلاد الأوربية وفي كثير من البلاد الأخرى ، وكان الإخلاص للملك أو للأمير هو الإخلاص للبلاد التي لهما سلطان عليها ؛ ورب أرض كان يُدخلها الملك في ملكه فتصبح جزءاً من وطن رعيته ، كما يصبح

(١) كتبت هذه المحاضرة قبل أن تتألف الدولة العربية المتحدة من مصر وسورية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

سكانها جزءاً من تلك الرعية ، دون أن يكون في نفوس الجماعات نزعة الى الحياة المشتركة في وطن شامل وأمة واحدة .

وعندما زالت عقيدة الناس بأن الملوك إنما يحكمون الشعوب ويهيمنون على شؤونها بسلطة أمدهم الله بها ، تبدلت نظرة الجماعة الى الملوك ، وتولدت فيها نزعة القومية القائلة بأن على الإنسان أن يجعل لحب وطنه وحب قومه المقام الأول في قلبه .

ولقد ذكرتُ أن الوطن في معجماتنا العربية المنزل الذي يقيم المرء فيه . فالوطنية أي محبة الوطن تبدأ في ذلك المنزل أي في ذلك الوطن الخاص الصغير حيث الأهل والأقربون ، ثم تتعداه الى البلدة حيث يكون للإنسان في طفولته وفي شبابه صلات شتى بسكانها ، وحنين الى ما ألِفه فيها من أرض وجوّ وسماء .

وليس حب الإنسان للقطر الذي يتألف منه وطنه ، وللأقطار التي يتألف منها وطنه الكبير ، إلا امتداداً لحب وطنه الصغير وهو مولده ومنشأه . لكن حب الإنسان لمولده ينشأ عن عوامل معظمها مادية ، أما حبه لوطنه في معناه الاصطلاحي الحديث فهو ينشأ عن عوامل معظمها معنوية وروحية ، فما هي العوامل التي تعمل في نشوء القوميات عند الأمم ؟

عوامل القومية :

اختلف علماء الاجتماع والفلاسفة وسائر المفكرين في حصر عوامل القومية ، أو قل مقومات القومية . أهي البلد أي أرض الوطن ، أم العرق أو قل السلالة ، أم اللغة ، أم العناصر السياسية والاقتصادية ، أم التأريخ المشترك ، أم الدين ، أم الإرادة المشتركة . أم هي كلها أو بعضها ؟

واختلفوا خصوصاً في مدى تأثير كل عنصر من هذه العناصر في تكوين الأمم وانفصال بعضها عن بعض أو تميز بعضها من بعض .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أرض الوطن :

لعل أول ما يتبادر الى ذهن الإنسان أنه لا بد لكل أمة من بلد تعيش فيه ، وتختص به ، وتتخذه وطناً لها . وليس في مقدورنا أن نتصور وجود أمة لا تملك رقعة من الأرض تتشبث بها ، وتجعلها رمزاً لتعلق أفراد الأمة بعضهم ببعض ؛ فهذا الكائن المادي عنصر لا غنى عنه لكل أمة تريد أن يكون لها كيان خاص في المجتمعات البشرية . ولكن هذا العنصر المهم ليس أهم العناصر التي تقوم عليها القوميات ، على ما سيجيء ذكره . ومهما يكن من أمر فالحدود الطبيعية من جبال وأنهار وبحار عوامل أثرت في جميع الناس بمقدار ما أثرت في تفريق بعضهم عن بعض . ومن المعلوم أنه لم تبق قيمة لهذه العوامل في انتشار وسائل الاتصال في أيامنا هذه ، غير أن اتصال أراضي الوطن يكون أدعى الى ترابط أبنائه ، كما يكون انفصال تلك الأراضي أدعى الى تباعدهم على كر السنين . فالإنكليز في أستراليا وزيلندة الجديدة مثلاً أصبح لهم وطن خاص وقومية خاصة ؛ وكذلك الإسبانيون في الأرجنتين ، والبرتغاليون في البرازيل ، وذلك لبعد الشقة بين مواطنهم القديمة ومواطنهم الجديدة ، يضاف اليه عوامل أخرى كهجرة أناس من أقوام مختلفة ، وكتولد أجيال من الخلاسيين . والخلاصة أن فكرة الأرض المشتركة لا تكفي وحدها لتفسير تكوّن الأمة ، وإن تكن من مقوماتها المهمة .

وحدة العرق :

ومما يتبادر الى الذهن أيضاً أن الأمة قد ترتكز على وحدة العرق في أفرادها ، ولكن العرق (ويسمى السلالة أو العنصر أو الرِّس) شيء غامض في علم الإنسان وعلم السلالات البشرية . وقد تضاربت آراء العلماء في تحديد هذه العروق وفي تصنيفها علمياً حتى إن اختلاف الآراء في هذا الموضوع يوقع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المرء في حيرة ؛ ومن المعلوم أن بعض الاستعماريين يزعمون أن عروق البشر تتفاوت في مداركها وعقولها وقابلياتها ، وأن هنالك سلالات عليا وسلالات دنيا ، وأن في وسع شعب منسوب الى الأولى أن يحكم شعباً منسوباً الى الثانية ، وأن في وسعه أيضاً أن يقرضه ويقوم مقامه . وقد حاضرتُ رفاقكم في هذا الموضوع أي موضوع العنصرية منذ سنتين فاستغرق كلامي عليه اثنتين وثلاثين صفحة من الجزء الأول من كتاب الاستعمار فليراجعه من يشاء منكم .

والذي يهمنا قوله في هذا المقام أن العرق شيء والأمة شيء آخر ، وأن العرقية أو قل العنصرية غير القومية ، وأن عروق البشر الصافية قد انقرضت منذ أزمان واغلة في القدم ، وأنه لا يوجد اليوم في أوربة دولة كبيرة سكانها ينتسبون الى سلالة واحدة من سلالات البشر . فالإنكليز مثلاً يُنسبون الى السلتيين والنرمنديين والجرمانيين (الإنكليز السكسونيين) ، ومن الصعب القول بأن انكليز أيامنا هذه هم جرمانيون فحسب ، أي بأنهم آريون فيهم المزايا التي يلصقها عباد الآرية بهذا العرق ، تمييزاً لهم من سائر البشر ، لغاية التسلط والاستعمار .

ومما هو معروف أن الألمان هم أشد الأقوام تعصباً لنظرية العنصرية ، ومع هذا فان في ألمانية جرمانيين شقراً طوال الرؤوس والأجسام ، وفيها من أنسال الرومانيين ، ومن الفرنسيين الذين كانوا التجأوا اليها ، ومن الصقالبة المتجنسين بالجنسية الألمانية ، وفيها عدد كبير من الهُجُن الذين تولدوا من أفراد هذه الأقوام أو السلالات . فالادعاء بأن الأمة الألمانية مثال نقاء العرق الآري شيء لا يستند الى دليل علمي . ومع هذا فالأمة الألمانية من أشد الأمم تعلقاً بوحدتها وبأهدافها القومية .

وفرنسة تُعد أمة لها صفات الأمة الواحدة كالطبائع والأمزجة والعادات والميول المتقاربة . ولكن هذه الأمة مؤلفة من سلالات عديدة كالليغوريين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والرومانيين والسلتيين والجرمانيين والنرمنديين وغيرهم . فجميع هذه السلالات أو الأقوام المنسوبة الى سلالات مختلفة قد احتلت فرنسة أو جزءاً منها في زمن من الأزمان ، وتناسلت فيها ، واستقرت زمناً ، ولم تنشأ منها سلالة جديدة ، ومع ذلك نشأت الأمة الفرنسية من هذا المجموع المختلف .

ويتبين من هذه الأمثلة أن وحدة العرق تكاد تكون مفقودة في معظم أمم الأرض . ولكن قد يسود عرق من العروق بين أفراد إحدى الأمم فيكون عاملاً معنوياً في تساند هؤلاء الأفراد ، وفي انتظامهم أمة مستقلة عن غيرها من الأمم .

عامل السياسة والاقتصاد :

لا بد للشؤون السياسية والاقتصادية من أن يكون لها تأثير في نمو فكرة الحياة القومية . يقول بعض الكتاب : إن فتوحات روما هي التي وَحَّدت بلاد الغال ، وأوجدت فيها أول شعور بوحدتها المعنوية ؛ ويقولون : إن ملوك فرنسة هم الذين خلقوا فرنسة . ومثل هذه الأقوال يجعلون للأنظمة السياسية والأسر الحاكمة مكاناً مرموقاً في خلق الشعور بالحياة القومية المشتركة .

ولكن كتاباً آخرين يذكرون أمثالاً عديدة لأسر حكمت رقعاً صغيرة من أرض شعب واحد فحالت دون انتظام هذا الشعب في دولة واحدة ، أو حالت دون شعوره بأن له هو ومجاوريه كياناً قومياً مشتركاً . وتأريخ القرون الوسطى خاصةً مليء بهذه الأمثال في أوربة وفي غيرها .

والأسر الحاكمة أيّاً كانت قد تكون عنواناً للحياة الاجتماعية في زمن من الأزمان ، ولكنها لا تكون أصلاً لتلك الحياة . فقد يتعلق أحد الأقوام بأسرة حاكمة ويتخذها شبه رمز لقوميته ، وقد تفرض إحدى الأسر حكمها على شعب وتدعي أنها رمز لسيادته . ولكن الرمز في الحالين شيء والأصول التي تقوم عليها السيادة الحقيقية شيء آخر . فأصول السيادة الحقيقية لا نجدها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

إلا في القومية أي في جماع القوى الروحية الكامنة في الأمة . ولذلك لا يكاد يحصل نزاع بين تلك القوى ونزوات الأسر الحاكمة (كما حصل في الثورة الفرنسية ، وكما حصل أخيراً في الثورة المصرية) حتى تنفصل النزعة القومية عن الأسرة الحاكمة ، وحتى تعاديها وتقضي على حكمها عاجلاً أو آجلا .

وليست كل دولة وطناً ، على ما هو معلوم . فالأجزاء غير العربية من الدولة العثمانية لم تكن وطناً لنا عندما كنا تابعين لتلك الدولة . ولم يكن الألباني ولا البلغاري ولا اليوناني يفكرون في أن الشام أو العراق أو الحجاز كانت أجزاء من أوطانهم . وهذا دليل على أنه قد يكون هنالك اشتراك في الحكومة وفي الأنظمة من دون أن تتكوّن من المشتركين فيها أمة واحدة حقيقية .

أما الاشتراك في المصالح الاقتصادية فهو يكون ذا تأثير في نموّ الفكرة القومية على قدر الشعور بضرورة ذلك الاشتراك . فاذا فقد الشعور به تصبح المصالح الاقتصادية عامل تفريق بين أفراد الأمة الواحدة لا عامل توحيد . فالاتحاد الجمركي في تاريخ ألمانية الحديث (Zolleverein) كان عاملاً سبق وحدة المانية السياسية في القرن الماضي ، ومهد السبيل أمام تلك الوحدة . ونحن نشعر مع غرفنا التجارية والصناعية والزراعية التي عقدت مؤتمرها منذ ثلاثة أشهر في القاهرة أن إزالة الحواجز الجمركية بين الأقطار العربية عامل من عوامل توحيد تلك الأقطار سياسياً ، ولذلك ترونا نتشبث بهذا الطلب على الرغم مما قد يكون فيه من التضارب في مصالح الأفراد ومصالح خزانات الدول العربية .

وفي الحقيقة ما من دولة أو أمة إلا فيها مدن أو كُوَر تعارض مصالحها الاقتصادية مصالح مدن أو كور أخرى . ولا بد لكل دولة أو أمة من تضحية منافع بعض الأفراد والجماعات في سبيل المصلحة العليا لتلك الدولة أو لتلك الأمة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عامل الدين :

من المعلوم أن الاشتراك في الدين يُعد رابطة قوية تشد المؤمنين به بعضهم الى بعض . والأديان من حيث مبدأ القومية قسمان قسم يختص به قوم أو شعب أو جماعة ، وقسم يدين به الناس من مختلف الأقوام والشعوب . فالقسم الأول كاليهودية و كعبادة بعض الأوثان يولد في أصحابه نزعة خاصة تنضم الى النزعة القومية أو الجماعية ، فيزداد بها ترابطهم وتساندهم ، ويكون الدين عندهم ديناً قومياً ، ويكون في كيانهم عاملاً قوياً قد يضاهي عامل اللغة المشتركة والتأريخ المشترك .

أما القسم الثاني كالإسلام والنصرانية فهو أيضاً يولد في من يدينون به نزعة تساند قوية ، ولكنه يتجاوز النزعة القومية ، الى نزعة دينية شاملة لأقوام شتى .

ولقد كانت الأديان في التأريخ ، أي قبل نشوء مبدأ القوميات حديثاً ، أهم صلة روحية بين أبناء البشر ؛ ولكننا نرى في أيامنا هذه أن رابطة القومية قد تفوقت على رابطة الدين لدى كثير من الأقوام التي تدين بدين واحد . ومهما يكن مبلغ هذا التفوق فسيظل للتعاطف الديني مكان مرموق في صلات الأقوام المختلفة بعضها ببعض . وسنرى في محاضراتنا التالية تأثير الإسلام العظيم في انتشار أمتنا وفي نشر ثقافتنا العربية في الأقوام الإسلامية المختلفة . وسنرى أيضاً كيف أن التساند الديني بين العربي والأعجمي لا يجوز أن يتجاوز الحد الذي في تجاوزه إضرار بالوطن العربي وبالأمة العربية .

عامل اللغة :

يرى بعض الفلاسفة وعلماء الاجتماع ، ولا سيما الفرنسيين منهم ، أن وحدة اللغة عنصر مهم من عناصر الوحدة القومية . ولكنهم يقولون إن هذا العامل ليس كافياً ولا ضرورياً لخلق الأمة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويتمثلون في إثبات رأيهم هذا بأمتي الولايات المتحدة الأميركية وانكلترة فان لهما لغة واحدة على حين أنهما ليستا أمة واحدة ، وذلك خلافاً للأمة السويسرية فهي أمة لها ثلاث لغات أو أربع .

وأصحاب هذا الرأي هم الذين لا يبنون بناء الأمة إلا على الفكرة المثالية أي على الاشتراك في الذكريات وعلى ارادة الجماعة في أن تكون أمة مستقلة عن الأمم الأخرى .

ويرى آخرون ـ ونحن على رأيهم ـ أن الاشتراك في اللغة هو أكبر عامل يولد في نفوس الناس ارادة الانتظام في أمة واحدة . ولذلك لا يظل ثمة مجال لتقليل شأن اللغات في تكوين القوميات . فما لا شك فيه أن اللغة هي أقوى رباط معنوي بين الأفراد لأنها وسيلة تفاهمهم ، ولأنها أيضاً وسيلة نقل تراث الأجداد الثقافي الى الأحفاد . ومتى تفاهم الأفراد بلغة واحدة اتحدوا في تفكيرهم ، ونشأ فيهم شعور من التعاطف قلما ينشأ مثله في أفراد يتكلمون لغات أجنبية ؛ وهذا التعاطف عامل عظيم في جعل المتكلمين بلغة واحدة يتميزون من غيرهم ويؤلفون أمة واحدة منفصلة عن غيرها من أمم الأرض . واذا فقدت احدى الأمم لغتها ، وجعل أفرادها يتكلمون بلغة جديدة ، سرعان ما يفقدون قوميتهم ، ويندمجون في الأمة التي تتكلم بتلك اللغة الجديدة . ولذلك نرى الدول الاستعمارية تعمل جاهدةً على إضعاف لغات المستعمرات ، أو على قتلها ؛ ونرى تلك الدول تبذل جهدها في تعليم لغاتها وبث ثقافاتها ، لما لذلك من تأثير كبير ، سواء في وأد الروح الوطني في نفوس أبناء المستعمرة ، أم في خلق شعور بالرضى عن أفاعيل الدول الاستعمارية ، وعما تقترفه من آثام في المستعمرات والمحميات .

ورب أمة تسلط عليها قوم أجنبي ، وحكمها سنين عديدة ، فلبثت محتفظة بلغتها ، فوقاها تشبثها بلسانها عادية الاضمحلال ، حتى اذا استعدت وواتاها الزمن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

القلب ، استردت ما فقدت من استقلال وسيادة ، فكانت اللغة سبباً في عودتها الى الحياة الحرة الكريمة .

ويتضح من هذه الإلمامة ، أن اللغة أهم جزء في جسم الأمة ، وأنها أكبر عامل في تكوُّن الأمة وفي بقائها حية على هذه الأرض ، وأنه لا حياة لأمة تهمل لغتها وتدع غيرها من اللغات تتغلب عليها . وسنرى في محاضراتنا التالية مبلغ ما للغتنا الضادية المضرية من أثر كبير في كيان أمتنا العربية .

الفكرة المثالية :

من رأي أصحاب هذه الفكرة أن الأمة في أيامنا هذه لا ترتكز على العرق ، ولا على الدين ، ولا على الحدود الطبيعية للوطن ، ولا على العناصر السياسية والاقتصادية ، حتى ولا على اللغة . فهم يرون أن هذه المقوِّمات الواقعية أو المادية لا تكون أصل الوحدة القومية ، وإنما أصل تلك الوحدة هو الفكرة المثالية . فقوام الأمة الجوهري عندهم عوامل روحية أو قل روح مشتركة ؛ ولهذه الروح دعامتان : الأولى اشتراك أفراد الأمة في ذكريات التأريخ من مجد وألم ، والثانية إرادة هؤلاء الأفراد أن يدوم هذا الاشتراك في الحاضر وفي المستقبل . ولرينان الفرنسي محاضرة مشهورة في هذا الموضوع . ومما جاء فيها أن الأمة تتألف من شيئين : الأول في الماضي ، والثاني في الحاضر ، وهما في الحقيقة شيء واحد . فالأول أن يكون لأفراد الأمة تراث كبير مشترك من الذكريات ، والثاني أن يكونوا راضين بحاضرهم ، وراغبين في العيشة المشتركة ، ومريدين المثابرة على تقدير قيمة الإرث المشاع الذي انتقل اليهم من أسلافهم ؛ وهو ينتهي الى القول بأن الأمة تضامن عظيم يحصل من الشعور بالتضحيات الماضية ، ومن الشعور بالتضحيات التي في النية القيام بها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

تأثير الاشتراك في التأريخ :

يتضح من رأي أصحاب الفكرة المثالية أن إحدى دعامتي القومية عندهم الاحتفاظ بالقيم الروحية التي انتقلت الى الأمة من التاريخ أي من ماضيها المشترك . ومما لا يقبل الجدل أن لشعور الأفراد بوحدة التأريخ أثراً كبيراً في حياة الأمة . ولكن التأريخ السياسي لأمة من الأمم قلما يكون واحداً طيلة أزمان طويلة . وهو لا يكون مشرقاً دائماً . ولذلك قال أحد الكتاب المفكرين : من واجبات كل أمة نسيان جزء من تأريخها . وقال آخر : لا يجوز في الوطنية الاكتفاء بالرجوع الى الماضي وحده ، بل يجب الاهتمام خاصةً بتوجيه الوطنية الى المستقبل . فالأغلاط التي حَمَّلنا الأجداد عبء إصلاحها تكاد تعادل أفعالهم الحسنة التي تركوها لنا أمثلةً تُحتذى . وليس الحرص على مستقبل صالح جديد بأقل وطنيةً من الإخلاص لعبادة الماضي .

وينتج عن هذا الرأي في مدى تأثير التأريخ المشترك أن بعض أصحاب الفكرة المثالية يغلّبون إرادة التعايش والعمل المشترك ، على التعلق بماضي الأمة ، ويجعلون لهذه الإرادة المقام الأول في بناء الأمة . وعلى هذا يصبح الأساس الأول والنهائي الذي تُبنى الأمة عليه هو مبدأ القوميات ، أو قل حق الشعوب بتقرير مصيرها ، أيا كان ماضيها .

ومهما يقلل أصحاب هذا الرأي من شأن الاشتراك في التأريخ ، يظل القسم المشرق من تأريخ الأمة عاملاً أساسياً في تكوين الشعور القومي فيها ، ذلك بأن من المؤثرات الفعالة في النفوس تذكر ما لماضي الأمة من أثر حميد في الثقافة والمدنية ، وما لرجالاتها من بطولة ، وما حفظت الأيام لها من قصص وأساطير ، وما خلفت لها من عادات وتقاليد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والأمة الحية هي التي تهمل في تفكيرها (لا في دراسة التأريخ) النواحي المظلمة من تأريخها ، وتتشبث بنواحيه المشرقة ، فتكون تلك النواحي المشرقة عاملاً كبيراً من عوامل شعورها بوحدتها .

الخلاصة :

يلخص كلامنا على العوامل التي تؤثر في نشوء القوميات بأن هذه العوامل قسمان : قسم مثالي أو روحي ، وهو أن يكون عند أفراد الأمة شعور بكيانهم المشترك ، وإدراك جماعي له ، وإرادة تحفزهم على العيش عيشة مشتركة في أمة واحدة .

وقسم واقعي أو مادي وهو أن يكون لهذه الروح المشتركة جسم ترتكز عليه ، وهذا الجسم هو جملة العوامل الواقعية أو المادية التي ألمعتُ اليها كالاشتراك في اللغة وفي التأريخ وفي الأرض وفي السلالة وفي الدين وفي المصالح ، الى آخر تلك العوامل التي لكل منها تأثير كبير أو صغير في تكوين الأمم على اختلافها .

ولا شك في أن أهم بواعث القسم الأول ، أي أهم ما يولد الروح المشتركة في نفوس الأفراد انما هو اشتراكهم في اللغة وفي الذكريات التأريخية .

والذي يهمنا ذكره فيما يتعلق بقوميتنا العربية أنها من حيث الفكرة المثالية تقوم ـ كغيرها من القوميات ـ على الشعور والإيمان بأن العرب في جميع أقطارهم أمة واحدة ، وعلى إرادة السعي لتحقيق الأهداف السياسية والاجتماعية والاقتصادية لهذه الأمة . (وسنتكلم على هذه الأهداف) .

أما العوامل الواقعية التي ترتكز عليها قوميتنا العربية ، أي بواعث الفكرة المثالية ، فأهمها عاملان : الأول اللغة العربية الفصحى ، فهي التي تولد فينا ذلك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الشعور القوي المشترك بالتعاطف والتساند بين أبناء الناطقين بالضاد على مختلف شعوبهم وأقطارهم ، وهي التي تولد فينا تلك الإرادة أو النزعة المشتركة التي تحدونا على اعتبار هذه الشعوب أمة عربية واحدة ، واعتبار أقطارنا وطناً مشتركاً واحداً هو الوطن العربي الأكبر لتلك الأمة .

وأما العامل الثاني فهو تأريخنا المشترك . فالقسم المشرق من تاريخ أمتنا العربية عامل أساسي في تكوين النزعة القومية فينا ، ذلك بأن من المؤثرات الفعالة في نفوسنا تذكر ما لماضي أمتنا من أثر حميد في الثقافة والمدنية ، وما كان لرجالاتها من بطولة ، وما حفظت الأيام لنا من تراث علمي وأدبي عظيم ، وما خلفت لنا من قيم روحية لا كفاء لها .

وبعد ، إن القومية إيثار لا أثرة ، وتضحية لا جزع مغنم ، وعقيدة في سويداء القلب لا شقشقة على عذبة اللسان . وياويح أمة لا تؤمن بقوميتها ، ولا تقبل التضحية في سبيلها ، ولا تعرف كيف تضمن لنفسها عناصر الحياة من علم وثقافة واقتصاد وقدرة على حكم نفسها بنفسها ، وعلى مدافعة العدوان عن وطنها . فأمة كهذه الأمة لا مكان لها ولا استقلال في عصر القوميات وفي معترك التسلط الاستعماري .

ومن الأجرام الفظيعة أن يتخلى أفراد الأمة الضعيفة عن عقيدة القومية ، وأن يتجاوزوها الى الإيمان الأعمى بعقيدة العالمية أو الأممية في هذا الزمن الذي ما برح ذئاب الاستعمار فيه يلغون في دماء الشعوب الضعيفة ، ويأبون التخلي عن فرائسهم إلا بسفك الدماء .

ومن الخطأ الظن بأن القومية ظلم أو مشاكسة لغيرها من القوميات . فالقومية لا تكون كذلك الا عند الأقوام التي لها دول استعمارية غاشمة . أما

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

عند غيرهم من الأقوام فالقومية لا تكون إلا عقيدة إنسانية عادلة تحرص على احترام حقوق القوميات السائرة حرصها على جعل تلك القوميات تحترم حقوقها[1] .

مصطفى الشهابي

---

(١) قد يرى بعضكم أن يطالع في كتب أعجمية مواضيع مماثلة لمواضيع هذه المحاضرة ولذلك لعله من المفيد أن نضع أمام أهم مصطلحاتها الألفاظ الفرنسية التي تنظر اليها :

وطن	Patrie	أهالي . سكان	Population
وطنية	Patriotisme	دولة	Etat
وطني	Patriote	عالمية	Cosmopolitisme
مواطن	Compatriote / Citoyen	أقـوامية	Internationalisme
أمة ، قوم	Nation	أقـوامي / لا قومي	Internationaliste
(١) قومية / (٢) جنسية . تابعية	Nationalité	الفكرة المثالية	Conception Idéaliste
قومية	Nationalisme	الفكرة الواقعية	Conception Réaliste
شعب	Peuple		

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net